البث التلفزيوني الفضائي
والهوية الثقافية للمجتمع الجزائري

الدكتور بوعلي نصير

جامعة الأمير عبد القادر

يعد البث التلفزيوني "الفضائي" المباشر نتيجة حتمية لتطور تكنولوجيا الاتصال. فبفضله أصبح المواطن ينتقل بيسر بين المحطات التلفزيونية دون رقابة إلا من نفسه ومن ضميره الوطني والديني ووفق إمكانية الثقافية واللغوية. وبدأت ظاهرة البث التلفزيوني "الفضائي" المباشر تأخذ مكانة هامة بين الباحثين والمتخصصين. إذ يرى بعض الباحثين أن تأثيره على المشاهد قد يكون إيجابيا أو سلبيا أو الاثنين معا. فمن الآثار الإيجابية أنه يجدد الثقافة الوطنية الراكدة في بعض الأحيان بتطعيمها بنماذج وتطلعات عصرية جديدة تتعلق بالإبداع والأداء الرفيع والإيقاع السريع مع تشجيع التبادل الحضاري ونشر التسامح الثقافي بين الأمم والشعوب، وكذلك يساهم في تطوير وسائل الاتصال المحلية وبخاصة التلفزيون[1] . إذ تفرض عليها المنافسة مع القنوات الفضائية الدولية بضرورة تحديث لأساليبها، ومن ايجابيات البث المباشر أيضا اختفاء فكرة السيادة الإعلامية التي كانت تتمسك بها الدول الأمر الذي أثار قلق الحكومات الاستبدادية والنظم العنصرية. أما الجوانب السلبية في البث التلفزيوني المباشر فتتمثل في تشكيل العقول والتلاعب باتجاهات الرأي العام وتوجيه رغبات الناس بما يوافق سياسات أصحاب هذه المحطات في الدول الغربية وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية. أيضا يستطيع البث التلفزيوني المباشر إشاعة الميول الاستهلاكية النهمة والرغبة في التقليد والمباهاة. وأخيرا حقن الوجدان

1- طه عبد العاطي مصطفى نجم، البث التلفزيوني المباشر والهوية الثقافية العربية، مجلة العلاقات العربية – الأمريكية نحو مستقبل مشرق، عدد خاص، عمان، الجامعة الأردنية، 2001، ص. 159.

القومي بقيم ومعايير وسلوكيات قد لا توافق الثقافات المحلية الأمر الذي يهدد النسيج الاجتماعي[1].

وقد تنبأ عبد الرحمان عزي في الثمانينيات من القرن الفارط بأن الثورة الاتصالية مع ظهور أقمار البث التلفزيوني المباشر (في منتصف الثمانينات) قد تنذر بتقلص ثقافات إفريقيا وآسيا و أمريكا اللاتينية والعالم الإسلامي وانحصارها في شكل كيانات فلكلورية هشة لا مكانة لها في المسار التاريخي والبناء الحضاري[2].

وقد استقطبت مسألة الاستقبال التلفزيوني المباشر منذ التسعينيات اهتمام الجميع في العالم العربي من سياسيين ومفكرين وباحثين اجتماعيين ومختصين بمجال علوم الإعلام والاتصال. كما أثارت هذه القضية جدلا واسعا في مختلف الأوساط، واتخذت السلطات في العديد من الأقطار العربية تجاهها مواقف متباينة. وربما كان سبب تخوف الكثيرين من ظاهرة البث التلفزيوني المباشر هو الحفاظ على الهوية الثقافية المحلية، في الوقت الذي تحاول فيه الولايات المتحدة الأمريكية اختراق الثقافات الوطنية في كثير من دول العالم ومن بينها الثقافة العربية الإسلامية.

وتنفق الولايات المتحدة الأمريكية 250 مليار دولار سنويا لترويج ثقافتها، وأنشأت محطة MTV للقيام بهذه المهمة على مستوى العالم. حيث تبث الصور الخليعة والموسيقى والفنون التي تدغدغ الإعلام. وتمارس الولايات المتحدة الأمريكية الهيمنة الإعلامية من خلال تحكمها في تجهيز المعلوماتية والحاسوبية وغزو الفضاء وبنوك المعلومات. وتتركز معظم مصادر البث الإعلامي والأقمار الصناعية ومواد تصنيعها في يد الولايات المتحدة أيضا. وتستطيع مراكز البث والتصنيع بث الأخبار والمعلومات التي تناسبها وتشكل

---

1 - المرجع نفسه. ص. 159

2 - عزي عبد الرحمان، الإعلام الإسلامي تعثر الرسالة في عصر الوسيلة، حوليات جامعة الجزائر، العدد 04، 1989 / 190، ص. 35 .

صورة العالم بما يوافق مصالحها، وتستطيع التحكم في الأفكار والأذواق والأزياء الثقافية والانتشار الأدبي واللغوي بالشكل الذي يوافق مصالحها. ولعل قناة CNN الأمريكية مثال حي لما نقول، إذ تمارس هذه القناة أخطبوطا إعلاميا في مجال نشر وتوزيع الأخبار عبر العالم ومكاتبها متواجدة في أزيد من 140 دولة عبر العالم وتقدم الأخبار – حسب الوجهة الأمريكية – على مدار 24 ساعة بما يعادل 1500 خبرا يوميا[1]. . .

1 – أهداف الدراسة: تسعى هذه الدراسة للإجابة على سؤال جوهري هو إلى أي مدى يستطيع البث التلفزيوني المباشر التأثير في الهوية الثقافية للمجتمع الجزائري ؟ على اعتبار أن المجتمع الجزائري يستقبل اليوم ما يزيد عن 500 قناة تلفزيونية ومر على ظهوره وانتشاره (أي البث المباشر) أزيد من 15 سنة، بدليل أن الهوائيات المقعرة أصبحت متواجدة لا في المدن الكبرى فحسب بل في القرى والأرياف أيضا.

وللإجابة على هذا السؤال الجوهري تقتضي الضرورة طرح مجموعة من الأسئلة الفرعية، تشكل الإجابة عليها المحاور الرئيسية للدراسة وهي:

1 – كيف يستطيع البث التلفزيوني المباشر عولمة المجتمع إعلاميا وثقافيا ؟

2 – ما هي مظاهر العولمة الثقافية والإعلامية في المجتمع الجزائري ؟

3– ما هي الجهود التي تبذل للحد من مظاهر العولمة الثقافية والإعلامية في المجتمع الجزائري؟

2 – مفاهيم الدراسة:

أ – البث التلفزيوني المباشر: يرجع الاهتمام بفكرة البث التلفزيوني "الفضائي" المباشر إلى سنة 1980 عندما أعلن في الولايات المتحدة عن سياسة السماء المفتوحة التي بمقتضاها يمكن لأي جهة تمتلك المال اللازم أن تطلق قمرها الخاص، حيث يمكن بث

---

1 – محمد شطاح، البث التلفزيوني المباشر بواسطة الأقمار الصناعية، المجلة الجزائرية للاتصال، العدد 15، جانفي / جوان 1997، ص. 230 – 277 .

برامج في الأخبار والرياضة والدين والاقتصاد والمال وغيرها، ويستطيع رجال الأعمال والبنوك عقد المؤتمرات عبر الأقمار على قناة خاصة، بحيث يمكن لكل شخص مشاهدة الأطراف الأخرى في الاجتماع وهو على بعد آلاف الكيلومترات، فضلا عن خدمات التلكس والفاكس وإرسال المستندات وغيرها[1].

إن فكرة اختصار الوقت والجغرافيا وتحويل العالم إلى قرية كونية صغيرة تجسدت فعليا مباشرة مع ظهور أقمار البث التلفزيوني المباشر (Direct Broadcasting attelite) في منتصف الثمانينيات. فبانطلاق فرنسا لقمرها الصناعي الأول الخاص بالبث المباشر (TDF1) وإطلاق الولايات المتحدة هي الأخرى لقمر (ASTRA) أصبح نصف الكرة الشمالي مفتوحا على مصراعيه لكل ما هو دخيل، وأصبحت المجتمعات كأطراف معينة في معادلة البث المباشر.

واليوم حسب تقديرات الخبراء ما يزيد عن 25 قمر صناعي خاص بالبث التلفزيوني المباشر تسبح في القضاء المفتوح وتعمل على تقريب الشعوب إلى الثقافة المركزية[2].

إن البث التلفزيوني المباشر ليس تقنية متطورة تمكن من التقاط الصورة والصوت من على ألاف الكيلوميترات فحسب، بل هو حضارة الصورة بكل أبعادها وتجلياتها ومراميها إلخ..

ويندرج البعد الحضاري من البث التلفزيوني المباشر في تلك الأطروحة القديمة التي تتمثل في النزعة الإثنية أو ما يسمى المركزية الإنسانوية (Ethnocentrisme)، بحيث تندرج هذه الفلسفة على إعطاء قيمة للأقوى تكنولوجيا حتى يسود بروافده الثقافية في شتى أرجاء المعمورة وفي المقابل القضاء على الثقافات المحلية الراكدة التي لا تستطيع المقاومة.

---

1 - طه عبد العاطي مصطفى، المرجع السابق نفسه، ص. 161.

2-أياد شاكر البكري، عام 2000 حرب المحطات الفضائية، دار الشروق 1999، عمان، الأردن، ص. 37

إن هذه المعادلة اللامتوازية مبنية على ما يسمى علاقة المركز (القوى العظمى) في مواجهة الأطراف أو المحيط. ومعاني هذه المعادلة من الناحية الاتصالية هو سيطرة الثقافة الغربية والإمريكية على الخصوص في مقابل اندثار الهويات القطرية.

إن البث التلفزيوني المباشر معناه أيضا النظرية الإمبريالية أو نظرية التبعية والتي يمكن تلخيصها في أن القوى الغربية بمعاونة المؤسسات المتعددة الجنسية تقوم باختراق مجتمعات العالم الثالث وإخضاع شعوبها لأنماط المعيشة الغربية، فمن خلال المواد الإعلامية الغربية مثل الأخبار والأفلام والأنشطة الترفيهية يجري التأثير على أبناء هذه الشعوب وصبها في قالب الفكر الغربي. وقد أكد "روبيرت شيلر" هذه الخطورة عندما قال بأن هناك أهدافا سياسية وعسكرية وثقافية ترتبط بعملية توسيع نطاق البث التلفزيوني الأمريكي ومحاولة الوصول إلى الجماهير في الدول الأخرى. ومن ثمة فإن التوسع الكبير الذي يشهده التلفزيوني الأمريكي منذ السبعينيات – في رأي شيلر – ما هو إلا جزء من خطة كبرى لوزارة الدفاع الأمريكية لإخضاع العالم إلى السيطرة العسكرية والمراقبة الإلكترونية ونشر الثقافة التجارية الأمريكية (ثقافة مصنعة) على أنها الثقافة الكونية [1].

إن البث التلفزيوني المباشر أحدث خارطة جديدة له، وتتمثل هذه الخارطة في العناصر الآتية: التفاعلية؛ عدم الارتباط بعنصر الوقت؛ اللاجماهيرية؛ التوجه نحو تصغير الأطراف؛ تضخيم المركز؛ الشيوع والانتشار الواسع. . .

كل هذه العناصر تشكل ما يسمى العولمة في مجال الاتصال أي سيادة نموذج اتصالي، ثقافي، إعلامي واحد والقضاء التدريجي على المحلية أو القطرية.

---

1 – هيربرت شيلر، المتلاعبون بالعقول، الإصدار الثاني، ترجمة عبد السلام رضوان، سلسلة عالم المعرفة، 1999، عدد 243، ص. 115.

ومنذ منتصف التسعينيات أدخلت على نظام البث التلفزيوني المباشر مؤشرات أخرى جديدة هي ما يسمى بالاتصال المندمج بتشغيل النظام الرقمي في الإذاعة والتلفزيون والإنترنيت، وذلك لتشكيل عالم جديد في الاتصال الجماهيري.

ويتأسس هذا الاتصال على الاندماج والتكامل في المحتوى الإعلامي، ويعتمد أيضا على الاتصال عن بعد، ويتضمن التلفزيون الأرضي الرقمي (Digital terrestail TV) وإذاعة الراديو الرقمية (Radio casting Digital) بثا مباشرا إلى المترل عبر القمر الصناعي، إذ تعرض خيارات كثيرة أمام المستهلك. ويتميز هذا النظام بالقدرة على استدعاء المعلومات المساعدة وإحداث الخطوط السريعة الموجهة إلى المنازل، وأصبح الاندماج واقعا حتميا بين البث الإذاعي والتلفزيوني والإنترنيت، ويتمثل ذلك في Web TV. وعلاوة على ذلك تتميز الأشكال الجديدة للتكنولوجيا الرقمية بمجموعة من المميزات أهمها [1].

أ- اختيار أحسن البرامج التي تتضمن المقدرة على إدخال برامج من وإلى العالم.

ب- التفاعل الكبير بين الجمهور والوسيلة مع القدرة على التزويد الآني والتغذية المرتدة في البرامج.

ت- وصول أحسن إلى المعلومات.

ث- القدرة على إدارة الأعمال متضمنة الصفقات البنكية والشراء المباشر من المترل.

ج- فيديو تحت الطلب.

تلفزيون عالي الدقة أو التحديد (TVHD).

ب – الهوية الثقافية : (Identité culturelle)

ركزت بعض الآراء في تعريفها لمفهوم "الثقافة" باعتبارها مجموعة قيم تنسب إلى جماعة معينة. وفي بعض التعريفات هي "مجموعة من الخصائص تميز مجموعة معينة أو جماعة فرعية

---

1 - changements de la culture ،http nowles Colin J. K www. gu. edu. au/center/. , la technologie digitale, les futurs

تتمثل في القيم والمعتقدات بالإضافة إلى أي سلوك يظهر منهم". والثقافة هي كل ما صنعته يد الإنسان وعقله من مظاهر وأشياء في البيئة الاجتماعية. وعلى هذا الأساس يقسم الإنتروبولوجيون الثقافة إلى مظاهر مادية ومظاهر معنوية. فالمظاهر المادية متمثلة في المنشآت الصناعية وكل ما هو مادي محسوس في البيئة الاجتماعية. أما المظاهر المعنوية فتتمثل في المعتقدات والعادات والتقاليد والأعراف والقيم الأخلاقية إلخ. يرى ردي (Reddi) أن الثقافة هي " منهج الحياة لشعب ما، حيث تتألف من العادات والأعراف التاريخية والمعيشة ومن القيم التي تنعكس في أساليب عادات الولادة والزواج والموت كما تنعكس في صور الفنون الموسيقية والرقص والدراما والمسرح وفي كيفية الملبس وماهية الذوق العام كما تبرز الثقافة أيضا في الممارسة الدينية للنظام المجتمعي[1] .

وإذا حاولنا تحديد هويتنا الثقافية يجب أن نحدد من نحن وكيف ننظر للناس؟ فالهوية بناء كبير تعرف في ضوء وجود الفرد مع عدد من الجماعات الاجتماعية الهامة التي تشمل الأسرة والجنس ومكان الإقامة والوضع الاقتصادي والعرق. وبالرغم من أن هذه الجماعات الاجتماعية لا تستطيع بناء هوية متكاملة لشخص، لكنها تأخذ في الاعتبار تقديم العناصر الأساسية للهوية الثقافية[2] .

ويمكن أن توصف الهوية الثقافية بأنها النواة الحية للشخصية الفردية والجماعية، والعامل الذي يحدد السلوك ونوع القرارات والأفعال الأصلية للفرد والجماعة. والعنصر المحرك الذي يسمح للأمة بمتابعة التطور والإبداع مع الاحتفاظ بمكوناتها الثقافية الخاصة وميزاتها الجماعية التي تحددت بفعل التاريخ الطويل واللغة القومية والسيكولوجيا المشتركة

---

1 - عبد اللطيف ذبيان العوفي، الهوية الثقافية الوطنية والقنوات الفضائية، المجلة التونسية للاتصال، العدد 31، م. ع. أ. تونس ص. 32 — 33 .

2 - طه عبد العاطي مصطفى نجم، المرجع نفسه. ص. 161 .

والملموحات الغد. فالهوية الثقافية في واقع الأمر جزء عضوي من فكرة الثقافة لأنها مهما اختلفت أنواعها، فإن التعبير عنها يظل ذاتيا بصورة من الصور.

والثقافة دائما عالمية من حيث الوظيفة لأنها تتوجه إلى كل إنسان، فهي تنطوي إذن على ظاهرتين متناقضتين هما خصوصية قومية من حيث الإنتاج وعمومية إنسانية من حيث الوظيفة. ولذلك فالعنصر الهام في الإنتاج الثقافي هو خصوصيته وأصالته أي هويته الثقافية التي تميزه[1].

ويشير مفهوم الهوية الثقافية أيضا إلى ظاهرتين متكاملتين هما إحساس داخلي بالجمعية أو التوحد مع ثقافة معينة أو ثقافة فرعية. وإحساس خارجي يندرج ضمن ثقافة معينة كي تشارك إحساس ما هو مشترك مع الثقافات الأخرى وما يميزه عنها[2].

ويذهب البعض الآخر إلى القول بأن الهوية مفهوم إيديولوجي أكثر منه علمي. خاصة أن الهوية يمكن التعبير عنها من خلال سمات كثيرة ومختلفة، فقد يعبر عنها من خلال الدين أو اللغة أو الدولة الوطنية أو القومية، وكل هذه الخصائص متغيرة حسب طريقة استخدامها وتوظيفها، ولذلك يمكن لمجتمع أن يبدل هويته حسب المراحل التاريخية والظروف الراهنة[3].

ونستنتج في الأخير بأن الهوية الثقافية ليست نمطا جامدا، ولكنها تتميز بالتطور والتغير عبر العصور والأزمنة. وتتبلور داخل الأشكال التنظيمية والنظم الاجتماعية والقواعد والقوانين وأنماط القيادة. وتستطيع وسائل الإعلام التعبير عن الهوية الثقافية بأشكال متعددة.

3 – البث التلفزيوني المباشر والعولمة الثقافية :

1-Paul Velerin, les specefiques de la culture moderne, éd. le seuil, Paris 1980, p.
2-Paul Velerin, Ibid p. 32
3-Paul Velerin, Ibid p. 33

إن الهدف من سعي الولايات المتحدة الأمريكية الحثيث إلى السيطرة على مراكز الإرسال والهوائيات في العالم هو عولمة العالم ثقافيا. فقد أعلن المحلل الأمريكي ديفيد روتكوف (David Rothcoph) صراحة النوايا الأمريكية من حيث تولي مسؤولية نشر الثقافة "الديمقراطية" الليبرالية الغربية وإزاحة الثقافات المحلية. وفي أطروحته في مديح الأمبريالية الثقافية سنة 1998 يقول:[1]

1- إن أهم خطوة للعولمة هي إزالة كل الحواجز الثقافية، وإن على الولايات المتحدة أن تهيمن على موجات الأثير وأن تحقق النصر في معركة تدفق المعلومات حتى يمكن أن تكون لها السيطرة والهيمنة في الوقت الحاضر والمستقبل.

2- إن كل الثقافات القومية بما تنطوي عليه من معتقدات ونظم سياسية واجتماعية وقانونية. و أعراف وقيم وتقاليد وعادات، لابد من تغييرها وفقا لما تمليه الحاجات المتغيرة باستمرار.

3- إن أفول التمايزات الثقافية والقضاء على الثقافات القومية يعد مقياسا لتقدم الحضارة الإنسانية وعلامة ملموسة على تعزيز التواصل والتفاهم بين الشعوب.

4- إن المجتمعات ليست في حاجة إلى أصولها التاريخية وتراثها الثقافي، ففي الديمقراطية الليبرالية والتكنولوجيا الحديثة ما يستجيب لحاجتها المتزايدة باستمرار.

5- إنه على جميع الدول أن تتوحد ثقافيا أو على الأقل تتشابه وأن تلغي كل مؤسساتها التقليدية وعليها أن تتقارب وتتعارف على أسس من الديمقراطية الليبرالية والسوق العالمية.

---

1 - محمد سكران، العولمة والهوية الثقافية رؤية نقدية، ندوة العولمة والخصوصية الثقافية، جامعة السلطان قابوس وجامعة الزيتونة تونس، مسقط : 1999 ص 9 - 10

6- و في النهاية يدعو إلى أن تكون اللغة الإنجليزية هي لغة الثقافة العالمية الجديدة ولغة التخاطب على الكوكب الأرضي.

وفي ظل هذا التوجه الأمريكي بشأن استغلال تكنولوجيا الإعلام المتقدمة في فرض توجه ثقافي معين على بقية شعوب العالم. تباينت الآراء بشأن ما يسمى"العولمة الثقافية" إذ دافع عنها بعض الباحثين التجديديين، بينما دافع آخرون عن ضرورة وجود هوية ثقافية تميز كل مجتمع عن الآخر، وبين هذا وذاك تفرض التكنولوجيا أقدامها باسطة نفوذها في كل المجتمعات، سواء على مستوى الآليات (المعدات التقنية المتطورة) أو على مستوى المضامين والبرامج التلفزيونية[1].

لقد أدخلت تطورات العولمة الثقافية العالم في تفاعلات ومواجهات لم يعرفها من قبل بسبب إسقاطها المستمر لحدود الزمان والمكان، فهي تهدد الجغرافيا وحدود الدولة السياسية عن طريق البث المباشر. لذلك أصبحت الشعوب والدول والثقافات – نتيجة لهذا البث المباشر – أكثر حاجة للبحث عن شروط ومواصفات تؤكد اختلافها وتمايزها قصد تكوين علاقة واضحة بين الأنا والآخر. وهذا ما يجعل حضور وصعود سؤال الهوية عاديا لمواجهة تسارع التحولات التي يعيشها العالم الذي تحول إلى قرية كونية صغيرة مع التقارب وتهاوي الحدود بسبب دور التكنولوجيا في الاتصال والمواصلات وحركة العمليات التجارية كما تمثلها الشركات عابرة القومية. وتنقل رؤوس الأموال وهجرة العمالة بالإضافة إلى تعميم قيم ومبادئ سياسية وقانونية ودستورية مثل : الديمقراطية وحقوق الإنسان، وتمكين المرأة والأقليات، ثم انتشار أنماط في السلوك والمظهر والثقافة عموما ذات مصادر ومرجعية أمريكية[2].

4 – مظاهر العولمة الثقافية والإعلامية في المجتمع الجزائري :

---

1 - يطلق على المعدات والوسائل ب (HardWare)، بينما يطلق على البرامج ب (SafeWare).

2 - عبد القادر الهيتي، ثقافتنا والعولمة، ندوة العولمة والخصوصية الثقافية، مرجع سابق، ص. 2- 3.

دخلت الجزائر ميدان البث التلفزيوني " الفضائي" المباشر منذ منتصف الثمانينيات، وذلك من جراء إطلاق فرنسا لقمرها الصناعي الأول (TDF1) في أكتوبر من سنة 1985. وقد قدر الملاحظون أن مساحة بث هذا القمر تمتد من إسبانيا والبرتغال غربا إلى مجتمعات أوروبا الشرقية ومن الدول الإسكندنافية شمالا إلى مجتماعات المغرب العربي جنوبا. وقد كان رياض الفتح بالجزائر العاصمة السباق لهذا النوع من الاتصال التلفزيوني، حيث جهز بهوائي (مقعر) كبير مكنه من التقاط أربعة قنوات تلفزيونية أجنبية وهي : راي الإيطالية (RAI) ، ميوزيك بوكس الألمانية (Music Box)، TV5 الفرنسية وقناة أوروبا (Europa)[1]. وقد بلغ ثمن الهوائي المقعر في فرنسا في أفريل 1985 حوالي 15000 فرنك فرنسي وهو ما يعادل 300000دج بالإضافة إلى تكاليف الحبركة النقل[2]. وهذا ليس في متناول جميع المتلقين في فرنسا ولا سيما في الجزائر.

هذه الوضعية جعلت امتلاك الهوائيات المقعرة في البداية وفقا على المؤسسات العامة وكذلك الفئات الميسورة اجتماعيا، لينتشر فيما بعد بفضل الاتجاه إلى إنتاج الهوائيات الصغيرة ذات الاستعمال الفردي والجماعي والأسعار الميسرة في ظل تنافس شركات صناعة التلفزيون و ملحقاته.

وتأتي الجزائر في مقدمة بلدان العالم الثالث من حيث اقتناء الهوائيات وتعتبر سوقا حقيقية لترويج وسيلة الاتصال هذه[3]. ومازال نطاق سوقها في اتساع مستمر، الأمر الذي جلب اهتمام شركات الإنتاج المصنعة لهذه الهوائيات.

---

1 -Lotfi Meherzi, les images spaciales un défi pour le maghreb, revue algérienne de communication, Insic ،université d'Alger, N° 2, Mars, 1988 p. 39

2 - محمد شطاح، المرجع نفسه. ص. 230 — 277 .

3- من ملخص العروض والمداخلات والنقاش العام لليومين الدارسين حول الاتصال السمعي البصري، 09/08 ديسمبر 1997، قصر الثقافة مفدي زكرياء، الجزائر.

إن مظاهر العولمة الثقافية والإعلامية في المجتمع الجزائري تبدو في البداية من خلال الانتشار الواسع للبث التلفزيوني المباشر والذي أصبح يمتد إلى كل مناطق القطر الوطني لا في المدن الكبرى فحسب بل في القرى والأرياف أيضا. حيث أصبح المواطن الجزائري يتلقى كما هائلا من القنوات الفضائية يزيد عن 1000 قناة أو أكثر باعتماد الأنظمة الرقمية.

وقد أكدت العديد من الدراسات الميدانية اتساع الحقل الاجتماعي للمشاهدة المتعددة من مختلف القنوات بالإضافة إلى الكثافة التي تلقاها القنوات الأجنبية بهذا الخصوص والحجم الزمني المعتبر الذي أصبح يخصصه المواطن للمضامين الأجنبية من أفلام ومسلسلات وأخبار ورياضة و منوعات إلخ.

إن هذه المضامين تحمل قيم المجتمع الغربي عموما وقيم المجتمع الأمريكي على الخصوص، وتمتد هذه القيم لتسوق معها أنماط المعيشة الغربية في المأكل والمشرب واللباس لتتغلغل إلى العادات والتقاليد وفاسحة المجال للصراع الدائم بين الأنا والآخر، بين الأصيل والدخيل، بين الثقافة الوطنية الأصيلة والثقافة التجارية المصنعة.

إن المتلقي – اليوم – في الجزائر بإمكانه مشاهدة الدراما الأجنبية – غثها وسمينها – وبيسر وفق القاعدة الغربية " احترام الأذواق والميولات ". وبذلك يمكن القول أن مظاهر عولمة البث المباشر التلفزيوني في الجزائر هو في عولمة كل القيم السلبية. . . ذلك أن هذه القيم تحمل في طياتها بذور العولمة، بمعنى الاستعداد للانتشار الحر من دون قيود رقابية. لكن – ومهما يكن من أمر– فإن هناك عشرات الأسباب التي تدفع إلى القول باستحالة قيام ثقافة واحدة محل الثقافات الوطنية أو القومية لعدة أسباب أهمها أنه مهما تقاربت الشعوب في كل المجالات والميادين، يبقى الاختلاف دائما خاصة في الجانب الثقافي للحفاظ على تماسكها. وعلاوة على ذلك تعاني الثقافة التي يراد أن تكون ثقافة العالم

ونعني بها ثقافة الديمقراطية الليبرالية – خاصة في المجتمع الأمريكي – العديد من عناصر الضعف فيها، إذ تنطوي على قيم وأخلاقيات مادية في جوهرها وأهدافها.

وثقافات الشعوب ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، ولا يمكن اقتلاعها مهما كانت قوة آليات المسخ والتشويه لأنها متشعبة متشربة بثقافتها القومية[1]. فقد أثبتت دراسات ميدانية عدة في الجزائر أنه بمجرد ظهور الفضائيات العربية الحكومية والخاصة في التسعينيات من القرن الفارط استقطبت إليها المواطن في الجزائر وتحولت كثافة المشاهدة من الفضائيات الأجنبية إلى الفضائيات العربية[2] . مع اهتمام نسبي لصالح الفضائيات العربية المتخصصة كقناة الجزيرة وقناة اقرأ وآرتي للمنوعات.

إن هذه النتيجة تؤكد نظرية التأثير المحدود (Effets Limites)، بمعنى أن الفرد يختار البرامج والمضامين التي لا تتنافى وعاداته وتقاليده وقيمه الأخلاقية، وأن في الفرد درع واقي يقيه من التأثيرات الخارجية العارضة، ويتمثل هذا الدرع الواقي في نزعته الدينية أولا، ثم في حصانته المتجددة ثانيا. ثم أن الإنسان يميل عفويا إلى القضايا التي تعبر عن حاجاته المعنوية ومكوناته الحضارية ومعرفة صورته الحقيقية غير المشوهة أو المحدبة.

5 – **الجهود التي تبذل للحد من العولمة** : في البداية نشير إلى أن الجهود التي تبذل للحد من العولمة هي على مستوى الوسيلة لحد الآن. فالجزائر، ومنذ فترة طويلة من الزمن، تعاملت مع منظمة الإنتلسات فيما يخص وصول الصورة والصوت إلى كل مناطق القطر الوطني، وقد مضت هذه المرحلة بعدة مراحل منذ منتصف السبعينيات إلى غاية نهاية عقد الثمانينيات. ومع انتشار أقمار البث التلفزيوني المباشر سارعت الجزائر إلى دراسة هذه الوضعية، ولم تحدد موقفا واضحا إزاء هذا البث إلا مع بداية عقد

---

1 – عبد القادر الهيثي، المرجع السابق.

2- عبد الله بوجلال تأثير برامج التلفزيون الأجنبي على القيم الثقافية والاجتماعية والسلوكية لدى الشباب الجزائري، بحث غير منشور.

التسعينيات، حيث اقتضت الضرورة مسايرة الركب التكنولوجي المتطور والمتسارع ومن ثمة ضروري تكييف الجهود المحلية لإيجاد البديل الذي يجعل المواطن الجزائري قريبا من هويته ومن واقعه وبعيدا عن مجالات الاستقطاب التي تفرضها الفضائيات الأجنبية، الفرنسية على الأخص.

إن الندوة الوطنية التي عقدت برياض الفتح في الثامن والتاسع ديسمبر سنة 1997 خرجت بعدة توصيات خصت مستقبل البث المباشر في الجزائر وتتلخص هذه التوصيات في:

1. مواكبة التطور الحاصل على المستوى العالمي في مجال الاتصال من خلال دمج واستيعاب تكنولوجيا الاتصال الحديثة.
2. التعبير عن القضايا الوطنية وضرورة أن تجد هذه القضايا مساحة لها في وسائل الإعلام الثقيلة ومن ثمة حق المواطن في إعلام نزيه وموضوعي.
3. ضرورة بعث قنوات تلفزيونية جديدة على غرار ما هو واقع في بعض البلدان العربية.

إن تنويع البرامج وتكثيفها بما يخدم المشاهد ويلبي رغباته لا يمكن أن يكون — فعلا — من مهام قناة تلفزيونية واحدة، وهو ما دأبت عليه معظم الدول العربية التي تجاوزت فكرة القناة الوحيدة إلى القنوات التلفزيونية المتعددة بل والمتخصصة في كثير من الأحيان.

لهذه الأسباب وغيرها أنشأت بالجزائر سنة 1998 قناة تلفزيونية ثانية تلتها بعد ثلاث سنوات قناة تلفزيونية ثالثة. فالقناة الثانية (Canal Algérie) موجهة بصفة أخص للجزائريين بأوربا، أما الثالثة فهي موجهة إلى الجزائريين والعرب في المشرق العربي. لكن الملاحظ على هاتين القناتين أنهما مكملتين للقناة الأرضية (الأم) وليس متنافستين معها. من منطلق أن التنافس أو التوازي بين مؤسستين عموميتين أمر غير منطقي من حيث الطبيعة والفلسفة التي تحكم الخدمة العمومية. وثانيا، لأن التنافس أو التوازي بين القنوات قد يؤدي إلى مزايدات تنعكس سلبا على البرامج وبالتالي على المشاهد نفسه. وعليه فإن

خيار التكامل بين القنوات الثلاثة سيسمح – على ما يبدو – بنوع من التخصص الذي يلبي رغبة الجمهور في مجموعه.

ولطالما تجاهلت وسائل الإعلام الغربية قضايانا الوطنية وحاولت بوسائل متعددة طمس هويتنا الثقافية، حاولت القناة الثانية والثالثة – ولو سطحيا – التعبير عن هذه المقومات الوطنية من خلال شبكة برامجية اتسمت بالشمول؛ إذ تعمل – الآن – على تدعيم القيم الوطنية من خلال حصص عن الآداب والفنون والعادات والتقاليد العريقة للمجتمع الجزائري، بالإضافة إلى الحصص الإخبارية ، بشكل نشرات أو موائد مستديرة، والتي تعبر عن الأبعاد الثقافية وغناها في المجتمع الجزائري.

إن الإشكالية المطروحة ولو عن طريق الملاحظة، هي في كيفية خروج هاتين القناتين من دائرة الذات الناقلة والمقلدة للآخر إلى دائرة الذات المبدعة في إطار قيم ثقافة المجتمع الجزائري. هذه الإشكالية موقعها يكمن في إيجاد إستراتجية إعلامية مبنية على أطر حضارة المجتمع الذي تنتمي إليه بكل أبعاده المختلفة. ومن هنا كان ضروريا تغيير خارطة البرامج في التلفزيون الجزائري بداية من سنة 2000 . حيث اتسعت مساحة البرامج الوطنية والعربية مقارنة بالبرامج الأجنبية المستوردة.

6 – التلفزيون الو طني: عودة إلى الذات وترسيخ الهوية: إن الاهتمام بالثقافة الوطنية وبروافدها المختلفة في مواجهة ثقافة العولمة يقتضي بالضرورة تكثيف الجهود على مستوى كل المجالات للخروج من دائرة الآخر والدخول في دائرة الأنا وهو – فعلا – ما دأب التلفزيون الوطني على إحداثه منذ سنة 2000. حيث أصبحت مسألة الهوية الثقافية الوطنية تشكل محورا رئيسيا كإستراتجية ضمن البرمجة العامة (Programation Générale).

إن التقرير السنوي الصادر عن دائرة البرمجة بمؤسسة التلفزيون يقدم أرقاما تحمل دلالات كثيرة على الأقل على مستوى مساحة البرامج المقدمة للمشاهد الجزائري خلال سنة 2003. وتبرز هذه الأهمية في احتلال البرامج الوطنية المرتبة الأولى من حيث المساحة

الزمنية (66. 26 %)، يليها البرامج العربية في المرتبة الثانية (25. 66 %) ثم تأتي البرامج الأجنبية في المرتبة الأخيرة (08. 08 %)، وهي حقيقة لم تألفها في برامج التلفزيون منذ الاستقلال، إذ أن الحصص الأجنبية المستوردة كانت دائما تحتل الريادة ضمن البرمجة العامة. ولعل هذه النتيجة تتضح أكثر من خلال الجدول الآتي:[1]

جدول رقم 1

توزيع البرامج خلال سنة 2003

البرامج	النسبة %
البرامج الوطنية	% 26 .66
البرامج العربية	% 66 .25
البرامج الغربية	% 08 .08
المجموع	% 100

وقد جاء اهتمام التلفزيوني الوطني منصبا أساسا على البرامج الثقافية والتربوية حيث بلغت نسبتها ضمن البرمجة العامة خلال سنة 2003 ما يزيد عن 33 % ، بينما احتلت الحصص الإعلامية المرتبة الثانية بنسبة 20. 43%، كما احتلت التسلية مساحة معتبرة تؤكد وظيفة التلفزيون الوطني الذي يريد استقطاب شريحة الشباب إليه وإبعاده عن دائرة الاستغراب. ويمكن من خلال الجدول الثاني معرفة الحجم الزمني لهذه الأنواع من البرامج مفصلة كما يلي:[2]

1 - Rapport annuel 2003, édité par l'ENTV, direction de la programmation. département chargé de la mesure de l'audience, section statistiques. Année 2003 .
2 - Ibid, rapport annuel 2003 .

جدول رقم 2

توزيع أنواع البرامج المقدمة للمشاهد

خلال سنة 2003

أنواع البرامج	الحجم الزمني	%
الحصص الإعلامية	1442 ـ 53 د	%43 .20
الحصص الرياضية	741 ـ 57 د	%5 .10
التسلية	2521 ـ 08 د	%7 .35
الحصص الثقافية والتربوية	2356 ـ 59 د	%37 .33
المجموع	7062 ـ 57 د	%100

وعند مقارنة أنواع هذه البرامج بمتغير الجهة المنتجة، أي هل هي من إنتاج وطني أم عربي أم أجنبي؟ نجد أن البرامج الإعلامية كلها وطنية 100% بينما فيها يتعلق بالبرامج الأخرى نجد نسبة ضئيلة تعود للبرامج العربية والغربية، مما يعني أن دائرة الإنتاج في التلفزيون الوطني بدأت تتحرك وفق قاعدة " الخصوصية المحلية والانتماء العربي والتفتح الإيجابي نحو الآخر".

وتتضح معاني ودلالات هذه القاعدة الأصيلة من خلال الجدول الآتي:

جدول رقم 3

توزيع أنواع البرامج حسب الجهة المنتجة خلال سنة 2003

أنواع البرامج	الوطنية		العربية		الأجنبية		المجموع	
	الحجم الزمني	%	ح / ز	%	ح / ز	%	ح / ز	%
البرامج الإعلامية	1442 ـ 53	43 .20	/	/	/	/	1442 ـ 53	43 .20
البرامج الرياضية	533 ـ 40	55 .7	14 ـ 40	21 .0	193 ـ	74 .2	57 ـ 741	5 .10
التسلية	1386 ـ 40	63 .19	733 ـ 44	40 .10	400 ـ 47	67 .5	08 ـ 2521	7 .35
البرامج	1205 ـ 37	07 .17	1147 ـ 45	25 .16	03 ـ 15	05 .0	59 ـ 2356	37 .33

الثقافية والتربوية								
المجموع	4569 ـ 09	68 .64	1896 ـ 09	86 .26	597 ـ	46 .8	7062 ـ 57	100

إن هذه النتائج تؤكد حتمية طرح السؤال الثقافي على غرار السؤال السياسي. لأن السؤال الثقافي كان له مكان الصدارة في الهم الفكري المعاصر. لأن إطلالة القرن الحادي والعشرين، ومعها بداية الألف الميلادي الثالث صعدت أولوية الملف الثقافي وزادت من حدته بشكل غير مسبوق.

ولا عجب في ذلك إذا تذكرنا أن الثقافة راهنا ومستقبلا أصبحت إحدى الإستراتجيات الأربع الموجهة لقرارات وممارسات الدول الكبرى. ونعني بذلك إستراتيجيات: السياسة والاقتصاد، والحرب والثقافة. أما في بلدان كالجزائر، فإن الثقافة والتربية تمثل خط الدفاع عن الهوية الوطنية من خلال دورها النواتي على هذا الصعيد. ويبقى دور التلفزيون كنواة – في هذا الإطار – الوعاء الذي يستطيع أن يحمل كل روافد الثقافة الوطنية ويحميها من الحصار المزدوج المضروب عليها من الغزو الثقافي الأجنبي والدعوات المتطرفة. بالإضافة إلى ذلك يمكن كاستنتاج - ملاحظة أن التلفزيون (والفضائيات بصفة عامة) قد تؤثر في سلوك الأفراد والجماعات وبصفة تدريجية ولكنها (أي الفضائيات) لا تستطيع التأثير في الهوية الثقافية للشعوب، لأن الأمر هنا يتعلق بقيم مترسبة عبر التاريخ. وكما قال أحد الباحثين: التلفزيون قد يؤثر في الحمية الغذائية ولكنه لا يؤثر إطلاقا في الوازع الديني والذي يعتبر أهم رافد من روافد الهوية الثقافية.